حِبر أبيَض
WHITE INK

محمد الساعد

مقتل عثمان الثانى تواطؤ على الفساد بغطاء ديني !!

لـــم يكن الصراع داخل الســـلطنة العثمانية الذي أدى في نهاية الامر الى مقتل الســـلطان عثمان الثاني الا واجهة لنار كبرى كانت تشتعل تحت بلاط السلطنة، فالصراع على النفوذ والأموال بين مراكز النفوذ كان هائلا جدا وكان احد مظاهره قرار الحرب والانســـحاب من القتال، فقد كانت الحروب مصدر ارتزاق كبيرة للســـلطنة والانكشاريين، وكان الاموال والســـبايا، والغلمان تورد من تلك الحروب على مراكز القوى وليس لصالح الدولة.

واذا اخذ الانكشـــاريون كفايتهم من تلك المغانم توقفوا عن القتال دون ان يكون للسلطان قدرة على منعهم من التوقف او الاســـتمرار، كما ان التحالفات الداخلية بين مراكز القوى كانت تشكل وجه الدولة ونتائج اعمالها وقرارتها وهو ما اثر على علقاتها مع الشعوب التي احتلتها.

فالحرملك الذي تســـيطر عليه الإماء والخليلات والزوجـــات، له نفوذه، والمفتي ودار الإفتاء لهـــم نفوذهم، والصـــدر الأعظم ورجـــالات الدولة الكبار لهم كذلـــك، والامراء والـــولاة وقادة الجيش يســـيطرون على مقدرات كبرى، لكن الإنكشـــاريين كانوا هم القوة الأعظم والاكبـــر والاقدر، وهم حالة خاصة وفريدة لوحدهم، ومن يكونوا معه يصبح هو المنتصر في صراع القصور الســـلطانية على مدى عمر الدولة.

ولعل الخلاف الذي نشـــب بين السلطان عثمان الثاني والإنكشاريين دليل واضح على تغول الإنكشـــاريين داخل الدولة، وكاشفا خطورة ذلك الصراع الذي أدى في النهاية لقتل السلطان وتنصيب اخر، وبالرغم من محاولات الســـلطان " عثمان الثاني" الإصلاح - أيا كانت أسبابه - الا انه فشل في ادارة الصراع معهم، ووجد نفســـه منكشفا امام قوة غاشمة، وضحية لوحش هو من صنعه او لنقل الدولة صنعته، ولم يعودوا قادرين على مواجهته، وكأن الدولة أضحت هي الانكشـــاريين، والانكشـــاريون هم الدولة.

الغريب ان لا أحد دافع عن الســـلطان ولم يقف معه في وجه تجبر الانكشاريين، وكأن هناك تواطؤ او توافق على الفســـاد بين مراكز القوى، بل وموافقة على التخلص من الســـلطان، وكان ذلك واضحا من فتوى شـــيخ الإسلام العثماني الذي اعطاهم غطاء دينيا لعملية القتل التي ذهب ضحيتها السلطان عثمان الثاني.

لم يكن من المقبول عند الإنكشـــاريين الذين يؤمنون في اعماقهم انهم اهم مكونات الدولة ان يتنازلوا عن مغانمهم التي حاول السلطان عثمان الثاني الانقلاب عليها او خت تقليصها، ولذلك فقد حاكوا مؤامرتهم بالاتفاق مع مراكز القوى الأخرى بهدف الانقضاض على حكم خافوا ان يهرب من تحت أيديهم، فهم وان كانوا ليســـوا الحكام المباشـــرين، لكنهم الحكام الفعلييـــن، ومن يرضون عنه يبقى ســـلطانا ومن يغضبون عليه يقودونه الى مقصلة الموت، وهو ما حصل مع الســـلطان عثمان الذي سيق الى حتفه في قصره، محاولين اجباره عن التنازل وعندما رفض لم يكن امامهم الا قتله، وتنصيب سلطان اخر لا حول له ولا قوة.

اما عودتهم للسلطان الســـابق والمضطرب، فهو دليل على انه لا يريدون سلطانا مستقلا، بل العوبة وخادما بين ايدهم يســـيرونه نحو مغانمهم كيفما يريدون، وهذا هو ما سبغ شكل السلطنة في معظم فتراتها، حكام على العرش، وفساد مشتري في مرافق الدولة.

ان تقاسم النفوذ يؤدي بلا شـــك الى اقتسام المغانم والأموال، وهو يعني بلا شك السكوت عن الفســـاد بين القوى المتصارعة، ويصبح همهم الحفاظ على مســـاحاتهم وعدم الســـماح لغيرهم بالنفوذ اليها، مع محاولات توســـيعها، وكان درة ذلك الاســـتيلاء على قرار الســـلطان او تسييره فيما يحقـــق مصالحهم، وكانت دولة النفـــوذ تدور بينهم، فمرة يكون الانكشـــاروين ، ومرة الحرملك، ومرة أمهات السلاطين، ومرة الصدر الأعظم ، ومرة القوى الكبرة كالأوربيين، انها حكاية القصر والســـلطان وصراع مراكز القوى على الغنائم والسبايا والأموال؟.